مسجد الشقاق ـ الأزْمة السياسيّة عشيّة حَمْلَة تَبُوكَ*

مالك مسلماني

في السنة التّاسعة للهجرة و بعد أن بلغ جيش المسلمين مشارف المدينة قافلاً من تَبوك ، أمـر محمد فريقاً من جنده بالتوجه إلى مسجدٍ من أجل هدمه ، و قد نعتت المصـادر التاريخيـة الإسـلامية المسجد مدار البحث بمسجد الشقاق ، و لم تقدم هذه المصادر أية معلومات إضافية عن دوافع القـرار ، لكن التسمية توحي بأن بناة المسجد كانوا يسعون للقيام بحركة ذات طابع انشقاقي عن الإسـلام و فـي نطاق الإسلام ، و الحادثة تغري باستجلاء أبعادها على الرغم من أن المؤرخين لم يولوها أيـة أهميـة باعتبارها حادثة ثانوية في التاريخ الإسلامي المبكر ؛ و غرضنا في هذا البحـث تحليـل المعطيـات المتوفّرة في المصادر التاريخية المختلفة من أجل استجلاء غموض الحدث ، و استكناه دلالـة تسـمية المسجد شقاقاً .

من أجل دراسة هذه الحادثة يتأتى علينا دراسة البيئة الاجتماسية في المدينة حينذاك ، و لكـي تكـون الصورة جليةً فنحن مضطرون على وجه الخصوص لدارسـة أحـداث السـنتين الماضـيتين السياسية ؛ إذ إن فيهما تمكّن محمد من الاستيلاء على مكة ، و هزيمة هوازن ، فعزز هذان النصـران نفوذه السياسي في الجزيرة العربية ، و في الحجاز تحديداً من جهة ، و عرضا سلطته لخطر الانهيـار داخل المدينة من جهة أخرى ؛ و تعود هذه النتيجة المتناقضة إلى تفاصيل هذين الانتصارين .

الأحداث السياسيّة للسّنة الّثامنة للهجرة

أ ـ الاستيلاء على مَكة (رمضان ٨ هـ / كانون الثاني ٦٣٠ م)

مستغلاً موقعة مسلحة حدثت بين بني بكر ـ حلفاء قريش ـ و خزاعة ـ حلفائه ـ ، و الّتـي نشبت على أرضية ثَأْر قديمة متجذّرة في العهد الجاهلي ، قام محمد بنقض صلح الحديبية و الّذي عقد في ٦ هـ / ٦٢٨ م بينه و بين قريش ، و لم يكن قد مضى عليه أكثر من اثنين و عشـرين شـهراً ؛ فرأى أنه في حل من الالتزام بميثاق الهدنة مع قريشٍ بعدما قامت قريشٌ بإمداد بني بكر بالسـلاح ، و شارك بعض مقاتليها ضد حلفائه الخزاعيين .

تمكّن محمد من جمع عشرة آلاف مقاتل : من بني سلَيم ، و بني غِفار ، و من أسلَم ، و مـن مزينة ، و من جهينة ، و هي قبائل متمركزة حول المدينة ، علاوة على المهـاجرين و الأنصـار ، و مجموعات من تميم ، و قيس ، و أسد [١].

* نُشرت الدراسة في مجلة " النّهج " عدد ٢٣ / صيف ٢٠٠٠ ، ص ٣٠ ـ ٤٥ .

[١] تاريخ الأمم و الملوك ، أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، م ٢ / ١٦٣ .

لما وصلت الجيوش إلى مشارف مكة ، كان سعد بن عبادة يحمل راية المسلمين ؛ فتناقلت الألسن قولاً على لسانه : « اليوم يوم الملحمة ، اليوم تُستَحل الحرمة ، اليوم أذلّ اللّه قريشاً » ، فأخبر أحد المهاجرين محمداً [٢]. و قيل إن سعداً قالها أمام أبي سفيان عندما مرت أمامه كتيبة الأنصار ، و إنه قال : « يا أبا سفيان اليوم يوم الْمَلْحمة الْيوم تُستَحلّ الْكعبةُ » [٣]؛ مما دفع عثمان ، و عبد الرحمن بن عوف إلى التحذير من عواقب هذا الوعيد ، و قالا : « ما نأمن أن تكون له في قريش صولةٌ ! » ، و خوفاً من ذلك أخذ محمد منه الراية و أعطاها لعلي بن أبي طالب ، أو للزبير [٤]، أو لقيس بن سعد ـ ابنه ـ [٥]، و رفض مقالة سعدٍ ، فقال : « كذب سعد و لكن هذا يوم يعظّم اللّه فيه الكعبة » [٦]. و يبدو أن السبب الذي دفع بسعد لهذا القول هو إنّه لم يكن قد نسي كيف أن قريشاً قد قبضت عليه عقب بيعة العقبة الثانية بينـا كان يغادر مكة ، و ربطوا يديه إلى عنقه بِنِسع[٧] رحله ، و جاءوا به إلى مكة يضربونه ، و يجرونه بشعره ، و لم يتحرر منهم إلا عندما حرره جبير بن مطعِم [٨]و الحارث بن أمية ، و كان يجيروهما في يثرب [٩].

لم تلقَ جيوش المسلمين مقاومة من القرشيين ، باستثناء مجموعة تمركزت بالخَنْدمة لتقاتل بقيادة صفْوان بن أُمية ، و عِكْرمة بن أبي جهل ، و سهيل بن عمرو ، فجرت بينها و بين قوات خالد بن الوليد مناوشات انهزمت على إثرها المجموعة المدافعة .

لم يحاول الفاتح التنكيل بالمنهزمين ، أو خرق نظام المدينة المستسلمة الداخلي ، و قد تجلّى ذلك عندما طلب علي بن أبي طالب من محمدٍ أن يجمع لبني هاشم الحِجابة مع السقاية [١٠]؛ فرفض محمد ذلك ، و طلب استدعاء عثمان بن طلحة ـ الذي كان مسؤولاً عن الحجابة ـ ، فدعِي له ، فقال : « هاك مِفتاحك يا عثمان ،اليوم يوم بر و وفاء » . لكن بعض وجوه قريش لم تكن تشعر بالرضى ، فوصلت إلينا بعض التعليقات الساخطة .

تعليقات القرشيين الساخطين على الاستيلاء على مَكة

لما جاء وقت الظهر أمر محمد بلالاً أن يؤذن على ظهر الكعبة ، فلما أذّن استنكر القرشيون أن يؤذن على ظهرها رجل أسود ، و قالت جويرية بنت أبي جهل : « لقد أكرم اللّه أبي حين لم يشهد نهيق بلال فوق الكعبة » ، و قيل إنّها قالت : « لقد رفع اللّه ذكر محمد ، و أما نحن فسنصلي و لكنّا لا

---

[٢] قال ابن هشام هو عمر بن الخطاب ، السيرة النبويّة ، ابن هشام ، تحقيق : مصطفى السقا ، إبراهيم الأبياري ، عبد الحفيظ شلبي ، دار ابن كثير ، دمشق ـ بيروت ، م ٢ / ٤٠٦ ـ ٤٠٧ .

[٣] موسوعة الحديث الشريف (م. ح.) ، شركة البرامج الإسلاميّة الدوليّة ، الإصدار الثاني (CD) ، ١٩٩٧ م ، صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، رقم ٣٩٤٤ .

[٤] تاريخ الطبري : ٢ / ١٥٩ ؛ أُسد الغابة في معرفة الصحابة ، عز الدين بن الأثير ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٥ م ، م ٢ / ٢٢٣ ؛ تاريخ ابن خلدون ، دار البيان ، د. ت. ، م ٢ ، ج ٢ / ٤٣ .

[٥] الطبقات الكبرى ، ابن سعد ، دار صادر ، بيروت ، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م ، م ٢ / ١٣٥ .

[٦] صحيح البخاري ، رقم ٣٩٤٤ .

[٧] النسع : الشراك الذي يشد به الرحل .

[٨] عند ابن سعد : مطعم بن عدي .

[٩] تاريخ الطبري : ١ / ٥٦٤ ـ ٥٦٥ ؛ ابن سعد : ١ / ٢٢٣ ؛ خلدون ، م ٢ ، ج ٢ / ١٣ .

[١٠] ثمّة روايات تفيد بأن العباس بن عبد المطلب هو من طلب ذلك .

نحب من قتل الأحبة » ، و أضافت ـ حسب الأزرقي ـ « و لقد جاء إلى أبي الذي كان جاء إلى محمد من النّبوة فردها و لم يرد خلاف قومه » .

و قال خالد بن أسد [١١] : « لقد أكرم اللّه أبي فلم ير هذا اليوم » ، و كان والده قد مات عشـية الاستيلاء على مكة ، و قال الحارث بن هشام : « ليتني متّ قبل هذا اليوم » ، أو « وا ثكلاه ! ليتنـي متّ قبل أن أسمع بلالاً فوق الكعبة » أو « ما وجد محمد غير هذا الغراب مؤذناً » [١٢].

بالرغم من أن هذه التعليقات كانت تعبيراً عن عدم الرضى على الاستيلاء على مكـة ، إلاّ إن الدخول السلمي للمدينة ، و مراعاة الفاتح ـ الابن المنشق ـ لأهلها سمح بدمج مكة عملياً بالمشـروع المحمدي ، وهذا ما سيثبته التاريـخ فيما بعد عندما تقف مكة إلى جانب المدينة عقب وفـاة مؤسـس الإسلام ، بقيادة النخبة القرشية ضد أجزاء العربيا الرافضة للاندماج في الدولة النّاشئة .

ب ـ معركة حُنَيْن ـ بُعيد الاستيلاء

لم يكد محمد يمكث في مكة نصف شهر ؛ حتّى زحفت نحوه هوازن و ثَقيف ، بقيادة مالك بن عوف النصري ـ رئيس هوازن ، و كان عمره يومئذ ثلاثين سنة [١٣] ـ فعسكروا بحنَـين مـن أجـل محاربة المسلمين ، و قد طلب ابن عوف من المقاتلين اصطحاب أموالهم و نسائهم و أبنائهم كي لا يفكر أحد من مقاتليه بترك ساحة المعركة ، لأنّه أراد أن تكون المعركة دامية ، و نهائية .

خرج محمد لمواجهة القوات القادمة و معه ألفا مقاتل من أهل مكة مع المقاتلين الذين شـاركوا في الاستيلاء على مكة ، فبلغ عددهم اثنا عشر ألفاً .

اصطدمت القوتان في وادي حنَين ، فدارت الدوائر على قوات المسلمين إذ انهزم في البدء بنو سليم ، و تبعهم أهل مكة ، ثم بقية المجموعات القبلية [١٤]؛ فعبر أبو سفيان بن حرب عن شماتته ، فقال : « لا تنتهي هزيمتهم دون البحر » ، و صرخ جبلة بن الحنبل ،[١٥] ـ أخ صفوان بن أمية لأمه ـ : « ألا بطل السحر اليوم ! » ، فقال صفوان ـ و هو غير مقر بالإسلام بعد ـ : « اسكت فض اللّه فاك ، فـو اللّه لأن يربني [١٦] رجلٌ من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن » [١٧].

و في خضم هذا الاضطراب قام العباس بن عبد المطلب ينادي الأنصار بطلب من محمـدٍ ؛ و كانت الدعوى أول ما كانت : « يا لَلأنصار »[١٨]، ثم انتهت أخيراً : « يا لَلْخزرج » ، و قيل إن النّـداء اقتصر أخيراً على بني الحارث من الخزرج ، و كانوا مشهورين بالثبات في المعارك . و أخيراً انقلبت موازين القوى ، فصار النصر حليف المسلمين .

---

[١١] أسيد عند الأزرقي ؛ عتاب بن أسيد عند القرطبي .
[١٢] الكامل في التاريخ ، ابن الأثير ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ، م ٢ / ٢٥٤ ؛ أخبار مَكَّة ، محمّد بن عبد اللّه الأزرقي ، مكتبة الثقافة ، مَكَّة ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٥ م ، ج : ١ / ٢٧٤ ـ ٢٧٥ ؛ تفسير القرطبي ، الحجرات : ١٣ .
[١٣] ابن سعد : ٢ / ١٥٠
[١٤] ابن سعد : ٢ / ١٥١
[١٥] قال ابن هشام : كَلَدةُ بن الحنبل .
[١٦] يكون رباً لي ، أي مالكاً علي .
[١٧] ابن هشام : ٢ / ٤٤٣ ـ ٤٤٤ ؛ تاريخ الطبري : ٢ / ١٦٨ ؛ أُسد الغابة : ٢ / ٤٢١
[١٨] أو : ((يا معشر الأنصار ، يا أصحاب السّمْرة ، يا أصحاب سُورة البَقَرة)) (ابن سعد : ٢ / ١٥١ ، ٤ / ١٨ ـ ١٩)

انسحبت هوازن منهزمة ، و تعرضت بني مالك (الجناح الثقفي الثـاني) لأكبـر الخسـائر البشرية ، فقُتل منهم سبعون رجلاً ، وكان من بين القتلى عثمان بن عبد اللّه بن ربيعـة ، فلمـا بلـغ محمداً مقتله ، قال : « أبعده اللّه ! **فإنّه كان يبغض قريشاً** »[١٩].

في هذه اللّحظات الحرجة ، و قوات المسلمين ما زالت في ساحة المعركة ، و النّصـر الّـذي تحقق بالكاد بفضل الأنصار ، تكلّم محمد بعفوية ، و ببساطة ، فكشفت هذه العبارة عن أنّه بقي يـوالي قريشاً حتى عندما كان النصر ابن هنيهاته ، و الّذي تحقق بفضل الأنصار ، أو على الأقلّ أن تماسكهم هو ما سمح بتغير اتجاه المعركة .

حصار الطائف بعد حُنَيْن

تراجعت قوات ثقيفٍ المنهزمة نحو الطائف ، فتحصنت فيها لمواجهة قوات المسلمين ، الّتي كانت تسير إليهم . ثم إن جيوش المسلمين وصلت إلى الطائف ، فضربت عليها الحصار . دام الحصار عشرين ليلة تقريباً ، و لم يجر اشتباك مباشر بين الطرفين [٢٠].

تيقّن محمد من استحالة اقتحام الطائف ، فقرر الرحيل ، ثم توجه بعد فشل الحصـار صـوب منطقة الجعرانة ، و بها سبي (نساء ، و أبناء) هوازن ؛ و كانت حصيلتهم ستة آلاف من نسـاءٍ ، و أبناءٍ ، إضافةً إلى عدد كبير من الإبل و الشّاءِ .

ج ـ قسمة الغنائم ، و عطاء المؤلفة قلوبهم

جاء محمداً وفد هوازن و هو لم يشرع بعد بتوزيع الغنائم ، فأعلن استسلام قومهم ، و أقـروا بالإسلام ؛ عند ذلك خيرهم محمد بين نسائهم و أبنائهم ، أو أموالهم ، فاختاروا أبناءهم و نساءهم ، فقال لهم : « أما ما كان لي و لبني عبد المطلب فهو لكم ، فإذا صلّيتُ بالناس فقولوا : " إنّا نستشفع برسول اللّه إلى المسلمين ، و بالمسلمين إلى رسول اللّه في أبنائنا و نسائنا ، فسأعطيكم و أسأل فيكم " » . فلما صلّى الظهر ، فعلوا ما أمـرهم به ؛ فقال محمد : « ما كان لي و لبني عبد المطلب فهو لكم » ، فقـال المهاجرون ، و الأنصار نفس المقالة ؛ لكن زعماء القبائل البدوية رفضوا بالنيابة عن قبائلهم ، فرفض الأقرع بن حابس زعيم تميم ، و عيينة بن حصن زعيم فزارة ، و العباس بن مِرداس زعيم بني سلَيم ، لكن قوم الأخير لم يقبلوا بقراره ، فقال لهم : « و هنّتموني » .

لما رأى محمد أن الأغلبية رافضة للتنازل عن المغانم ، قال : « أما من تمسك منكم بحقه مـن هذا السبي فله بكلّ إنسان ست فرائض [٢١]، مـن أول سبي أصيبه ، فـردوا إلـى النّـاس أبنـاءهم و

---

[١٩] تاريخ الطبري : ٢ / ١٦٩

[٢٠] تاريخ الطبري : ٢ / ١٧٢ .

[٢١] **الفرائضُ** : جمع فَريضةٍ ، و هو البعير المأخوذ في الزكاة ، و سُميّ فريضةً لأنـه فرضٌ واجب على ربّ المـال ، ثـم اُتسـع فيـه حتـى سُميّ البعيرُ فريضة في غيـر الزكاة ، **لسان العرب** ، لابن منظور ، مادة ، **فرض** .

نِساءهم » [٢٢]. و ما أن سوى محمد مسألة السبي حتى تبعه المقاتلون يطالبون قسمة الفيء من الإبـل و الغنم ، حتّى ألْجَئُوه إلى شجرة ، فتشبكت بردائه حتّى نزعته عن ظهره [٢٣].

عطاء المؤلفة قلوبهم

كانت استراتيجية محمدٍ تتلخص بكسب أشراف القبائل ، من أجل الحصـول علـى اعتـرافهم بسلطته ، و ضمان ولاءهم لدولته الناشئة ؛ و لهذا شرع بإعطاء أشراف الناس ، فأعطى : أبا سفيان بن حرب و ابنه معاوية ، و صفوان بن أمية ـ العدو الّلدود السابق ، و الذي لم يقر بالإسلام بعـد ـ ، و حكيم بن حِزام ، و الحارث بن الحارث بن كَلَدة ، و الأقرع بن حابس و عيينَة بن حصِـن ـ الّلْـذَين رفضا التخلي عن السبي ـ كل منهم مئة بعير ؛ و أعطى دون المئة رجالاً منهم العباس بن مِـرداس ؛ فرفض الأخير العطاء ، فأعطاه محمد حتّى رضى [٢٤]، و ربما كي لا ينكسر بعد أن رفـض قومـه طاعته ، و يزداد وهنه على وهن . و قد بلغ عدد المؤلفة قلوبهم الأربعين [٢٥]. و من أجل نفس الهـدف أرسل إلى مالك بن عوف يعرض عليه صفقة تتضمن إعلان الإسلام مقابل رد أهله ، و ماله ، إضـافة لحصوله على مئة بعير ؛ فأُخبر مالك بذلك ، فخرج من الطائف ، و أعلن إسلامه [٢٦].

أثار ذلك حنق بعض المقاتلين ، فجاء رجلٌ إلى محمدٍ من بني تميم يقال له ذو الخُويصِـرة ، فقـال : « يا محمد ، قد رأيتُ ما صنعتَ في هذا الـيوم » ، و تابـع الرجلُ قائلاً : « إنّك لـم تعـدل اليوم » [٢٧].

لكن ردة الفعل الأخطر جاءت من الأنصار .

موقف الأنصار

ما إن أعطى محمد قريشاً ، و قبائل العرب المشاركة ، و لم يعطِ للأنصار شيئاً ، حتى شرعوا بالاحتجاج على نتائج القِسمة ، فقالوا لبعضهم : « لقد لقي واللّه النّبي قومه » ، و قال رجل من الأنصار « ما أراد بها وجه اللّه » [٢٨]، و قالوا : « سيوفنا تقطر من دمائهم و غنائمنا تقسم فيهم » [٢٩]، و ثمة شعر لحسان بن ثابت ـ شاعر محمدٍ ـ بصدد حرمان الأنصار من غنائم حنَـين ، و إن كـان مـن غيـر المعروف على وجه الضبط زمن قوله أفي ساحة المعركة أم عندما رجعوا إلـى المدينـة ؛ علـى أن المصادر التاريخية ترويه كتفصيل جرى في ساحة المعركة .

---

[٢٢] تاريخ الطبري : ٢ / ١٧٤ ؛ الكامل في التاريخ : ٢ / ٢٦٩ .
[٢٣] م. ح. ، موطأ مالك ، رقم ٨٦٦ .
[٢٤] الكامل في التاريخ : ٢ / ٢٧٠ .
[٢٥] ابن خلدون ، نفسه ، ص ٤٨ .
[٢٦] الكامل في التاريخ : ٢ / ٢٦٩ .
[٢٧] الكامل في التاريخ : ٢ / ٢٧١ ؛ تاريخ الطبري : ٢ / ١٧٦ .
[٢٨] م. ح. ، صحيح البخاري ، حديث رقم ٢٩١٧ ، و ٣١٥٣ .
[٢٩] ابن خلدون ، م ٢ ، ج ١ / ٢٩٣ .

توجه سعد بن عبادة إلى محمدٍ من أجل أن ينقل إليه اعتراض الأنصار على قِسمة الفـيء ، و حرمان الأنصار منها [٣٠].

أدرك محمد خطورة الوضع ؛ فجمع الأنصار ، فخطب فيهم قائلاً :

« و اللّه لو شئتم لقلتم فصدقتم : أتيتنا مكذّباً فصدقناك ، و مخذولاً فنصرناك ، و طريـداً فواسيناك ، أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعاعة [٣١] من الدنيا تألّفـت بهـا قومـاً ليسلموا ، و وكلتكم إلى إسلامكم ، أفلا ترضون أن يذهب النـاس بالشـاة و البعيـر ، و ترجعوا برسول اللّه إلى رحالِكم ؟ و الذي نفسي بيده لولا الهجرة لكنتُ امرأً من الأنصار ، و لو سلك النّاس شِعباً و سلكتِ الأنصار شِعباً لسلكتُ شِعب الأنصار » [٣٢].

تمكّن محمد من السيطرة على احتجاجاتهم بخطابه المؤثّر ، و قيل إن القوم قد بكوا حتّى بلّـوا لحاهم بالدموع ، و قالوا : « رضينا برسول اللّه قسماً و حظاً » [٣٣].

لكن جمرات مشاعر الغبن و الحرمان كانت تتقد تحت الرماد ، و سرعان ما بدأت تطفوا إلى السطح .

تفاعل الأزْمَة و حملة تبُوك [٣٤](رجب ـ ٩ هـ / ٦٣٠ م)

بعد إقامة محمدٍ في المدينة ثمانية أشهر ـ ما بين ذي الحجة إلى رجب ـ ، أمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم ، و قد أخبر عن مقصده خلافاً لعادته [٣٥]؛ فأعلن سبب قيام الحملة أنباءً بلغته بأن هرقل ملك الروم ، و حلفاؤه العرب المسيحيون قد عزموا على التوجه إليه [٣٦].

كان الحـر شديداً ، و البلاد مجدبةً ، و أوضاع النّاس المادية سيئةً ، فتجهز المقـاتلون علـى كره ، و لذلك سمي الجيشُ **جيش العُسْرة** . و زد من سوء الأمر أن قرار الحملة جاء و الحالة الداخلية في المدينة كان بالغ الحساسية ؛ إذ تعقد الوضع في المدينة سياسياً و اجتماعياً ، و برزت أعراض أزمة خطيرة هددت بتقويض استقرار المركز الإسلامي الوحيد ، و حيث توجد سلْطَة راسخة لجنين الدولـة الإسلامية ، و قد برزت أعراض هذه الأزمة عبر انتشار النفاق ـ المعارضـة ـ فـي المدينـة بعـد الاستيلاء على مكة ، و انتصار حنَين ، و كان **مسجد الشقاق** أحد منعكسات هذه الأزمة في المدينـة ، الّتي نتجت عن خيبة الأنصار من المعاملة الخاصة الّتي حظي بها المكّيون بعيـد الاسـتيلاء علـى مدينتهم ، و بعد موقعة حنَين ؛ سيما إن الأحداث جرت خلافاً لتوقعاتهم ، أو ربما لآمـال الـذين أرادوا

---

[٣٠] تاريخ الطبري : ٢ / ١٧٦ .
[٣١] **اللعاعة** : نبات الهندبا ، حيث شبه بها غنائم حُنَيْن .
[٣٢] الكامل في التاريخ : ٢ / ٢٧١ ـ ٢٧٢ .
[٣٣] ابن هشام : ٢ / ٥٠٠ .
[٣٤] تبُوك هي مدينة في الطريق من دمشق إلى المدينة .
[٣٥] تاريخ الطبري : ٢ / ١٨١ .
[٣٦] الكامل في التاريخ : ٢ / ٢٧٧ .

صنع ملْحمةٍ بالقرشيين كما عبر عـن ذلك زعيمهم سعد ؛ كما لم يكن الأنصار يشعرون بالرضى على إعلان محمدٍ قُبيل دخول مكة ، و الّذي نص على أنّه : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمـن ، و مـن أغلقَ بابه فهو آمن ، و من ألقى السلاح فهو آمن » ، فقال بعضهم لبعض : « أما الرجل فأدركته رغبة في قرابته و رأفة بعشيرته » [٣٧].

كان الأنصار يأملون بالحصول على غنائم تعوضهم تكاليف سنوات الصراع الثّمانيـة مـع قريش ، و لتكون أيضاً اعترافاً بمركزية نضالهم المشترك مع المهاجرين في تحقيق النصر الكبير على قريش . لكن دهشة الأنصار كانت عظيمة بصدور قرار العفو ، دون الرجوع إليهم ، و دون أن يسـفر الاستيلاء على مكة عن أية غنائم ؛ و زاد من تعقد الوضع موقعة حنَين ، و الّتي أبلى فيهـا الأنصـار بلاءً حسناً ، و بفضلهم تحولت المعركة إلى نصر ، بعد أن كادت قوات المسلمين تُمنى بالهزيمـة ، و محمد نفسه هو من استنجد بهم بعدما رأى فرار المقاتلين ؛ فعبر الأنصار عن هذه المفارقة ، فقالوا بعد قِسمة غنائم حنَين : « إن هذا لهو العجب أن سيوفنا تقطُر من دمائهم و إن غنائمنا تُرد عليهم » [٣٨].

كانت غنائم حنَين كثيرة ، و كافية ، و كان يمكن أن تُعوض الأنصار نسبياً عن نتـائج مكـة المخيبة لآمالهم ، لكن محمداً وفق حسابات تراعي الظروف السياسية المحيطة به ، قرر أن يقدم ثمـن الاستيلاء على مكة للقبائل المشاركة في صنع هذا الحدث ، و الّتي شاركت من أجل الحصـول علـى الغنائم و حسب ؛ و أحد أبرز الأمثلة هو عيينَة بن حِصن الذي شارك قريشـاً فـي غزوتهـا الفاشـلة للمدينـة ـ الخندق ـ في شوال سنة (٥ هـ / ٦٢٧ م) [٣٩]، كما شن في سنة (٦ هـ) هجوماً على مشارف المدينة ، و استطاع الاستيلاء على إبِلِ محمدٍ نفسه ، و قتل راعيها ، و خطف زوجه [٤٠]. و في حصار الطائف علّل عيينَة مساعدته محمداً برغبته في الحصول على فتاة منهم كي تنجب له ولداً ، لأن ثقيفاً كانت مشهورة بالدهاء و الفطنة [٤١].

شرع محمد يوزع الغنائم على هذه القبائل ، و أعطى بسخاءٍ لقياداتها ، مثل عيينَة الذي وصفه بـ « الأحمق المطاع » [٤٢]، مستثنياً الأنصار ، كما كان مضطراً لرشوة القرشيين ، و لتهدئتهم من أجل كبح نزعات التمرد فيهم على سلطته ، بوصفهم حديثي العهد بالإسلام كما شرح للأنصار [٤٣].

و إذ تمكّن محمد من السيطرة على انفعالات الأنصار بخطبة مؤثرة فـي ساحة المعركـة ، و منع الحدث من التفاعل سلبياً في حينه ، إلا أنه لم يستطع إنهاء تداعيات هذه القضية ، و أخفـق فـي إخماد جذوة الغضب الثاوي في نفوس الأنصار . فكان هذا الوضع بلا شك البيئـة المثلـى لمشـاعر الإحباط و الغضب ، و الشّعور بالظّلم ، و ربما لبروز أسئلة مشروعة من قِبل الأنصار عن مصـيرهم بعد كلّ ما قدموه من تضحيات للإسلام ؛ و لما لا و العشرة الذين بشرهم محمد بالجنّة كلهم قرشيون .

---

[٣٧] فتوح البلدان ، أبي الحسن البلاذري ، مراجعة ، رضوان محمّد رضوان ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م ، ص ٥٢ .
[٣٨] م. ح. ، مسند أحمد ، رقم : ١٢٢٦٩ .
[٣٩] ابن هشام : ٢ / ٢١٥ .
[٤٠] ابن هشام : ٢ / ٢٨١ ؛ تاريخ الطبري : ٢ / ١٠٥ .
[٤١] ابن هشام : ٢ / ٤٨٥ ؛ تاريخ الطبري : ٢ / ١٧٥ .
[٤٢] ابن هشام : ٢ / ٢١٤ ، هامش (٤) .
[٤٣] م. ح. ، صحيح البخاري ، رقم : ٣٩٨٩ .

و لهذا بالضبط تقرر القيام بغزوة تَبوك ، بالرغم من تبرم النّاس منها ، و بروز معارضة جدية لهذه الغزوة ، و كانت إحدى الحجج الرئيس لمعارضي الحملة هي شدة الحر ، و عدم ملائمة الطقـس للقيام بهذه المهمة ، فكان تحذير القرآن لهم شديداً : « و قالوا لا تنفِروا في الحر ، قُل نَار جهـنّم أشـد حراً لو كانُوا يفْقَهون » [٤٤]. كما كان بعض المعارضين يجتمعون في **بيت سويلم اليهـودي** ، يثبطـون النّاس عن المشاركة في الحملة ؛ و إذ كان الوضع لا يحتمل التساهل فقد بعث محمد إليهم طلحـة بـن عبيد اللّه في مجموعة من المسلمين و أمره أن يحرق البيت على المجتمعين [٤٥].

و من أجل الإسراع بتجهيز الحملة ، حثّ محمد أغنياء المسلمين على تمويلها ، و قد أدركـت هذه النّخبة المالية خطورة الموقف ، و مدى حرجه ، و استشعرت إرهاصات الانفجـار الاجتمـاعي ؛ فقامـت بواجبهـا ، و كان أبرز الممولين لها عثمان بن عفان [٤٦].

في هذا الظرف الحساس أُنجز بناء المسجِد ، و عشية خروج محمدٍ لتَبوك قدم إليه بناتـه ، و طلبوا منه المجيء ليصلّي في مسجدهم ؛ و قد علّل بناة المسجد سبب بنائه بأنّـه **للضعفاء مـنهم ، و أهل العلّة في اللّيلة الماطرة** ، و يبدو أن شكوكاً كانت تراود محمداً بشأن الهدف من بنائه ، و حقيقـة توجهات بناته ، فاعتذر منهم ، قائلاً : « إنّا على سفر ، و لكن إذا رجعنا إن شاء اللّه » [٤٧]. أما لِم لـم يهدم المسجد كما فعل ببيت سويلم مع وجود هذه الشكوك ، بينا قرره هدمه بعيد حملة تَبوك ؟ فهو يعود إلى الأسباب التالية :

أولاً ، إنّه لم يكن متأكداً من توجهات بناته ، و إنّه كلّف من يراقب له طبيعـة النّشـاط فـي المسجد ؛ فلما آب من تَبوك ، و نزل بذي أوان [٤٨] في طريق عودته إلى المدينة أتاه خبر المسـجد [٤٩]، أي بكلمات أخرى جاءته معلومات دقيقة عن الأهداف الكامنة وراء بنائه ؛ ثانياً ، لم يـر فيـه خطـراً مباشراً على سلطته أو على دعوته لحملة تَبوك ، ففضل التريث بشأنه كي لا يزيد التوتر في المدينة ؛ و أخيراً ، تعرض محمداً لمحاولة اغتيال أثناء عودته من تَبوك ، و الراجح أن هذه الحادثة قد لعبت الدور الأهم في قرار إحراق المسجد .

تجمعت القوات المتجهة إلى تَبوك ، و توزعت إلى قسمين : القسم الأول مع محمدٍ ، و تمركز في ثنية الوداع ؛ و القسم الثاني مع عبد اللّه بن أبي ابن سلول ، فكانت قوات بن أبي لا تقلّ عدداً عـن قوات محمدٍ ، فلما سار بقواته ، تخلّف عنه ابن سلول بقواته ، و ينقل الطبري قول الحسن البصري إن فيهم جاءت الآية : « لقد ابتغوا الفِتْنةَ مِن قَبلُ ، و قلّبوا لك الأمور » [٥٠].

وصل محمد إلى تَبوك ، و هناك عقد اتفاقاً مع يوحنا بن رؤبة صاحب أيلَة [العقبة اليـوم] ، مقابل إعطاء الجِزية ، و أتاه أهل جرباء و أذْرح ، فأعطوه الجِزية ، مقابل اتفاقات محددة [٥١]. ثُم أقـام في تَبوك بضع عشرة ليلة ـ كما تقول المصادر و دون أن تعين عدد أيام إقامته ـ ، و لـم يحـدث

---

[٤٤] القرآن ، لتوبة : ٨١ .
[٤٥] ابن هشام : ٢ / ٥١٧ ؛ تاريخ الطبري : ٢ / ١٨٢ .
[٤٦] ابن هشام : ٢ / ٥١٧ ـ ٥١٨ .
[٤٧] تفسير ابن كثير ؛ و القرطبي ، التوبة : ١٠٧ ؛ ابن هشام : ٢ / ٥٢٩ .
[٤٨] بلد على مشارف المدينة .
[٤٩] ابن هشام : ٢ / ٥٣٠ ؛ تاريخ الطبري : ٢ / ١٨٦ .
[٥٠] تفسير الطبري ، التوبة ، ٤٨ ؛ تاريخ الطبري : ٢ / ١٨٢ .
[٥١] الكامل في التاريخ : ٢ / ٢٨٠ .

الصدام المسلح مع الروم و العرب المسيحيين ، فعاد إلى المدينة [٥٢]. و في طريق عودته أمر الجـيش بالمسير من وادٍ ، و صعد هو طريقاً في أعلى الجبل و كان معه عمار بن ياسر ، و حذيفة بن اليمان .

اغتنمت مجموعة معادية لِمحمدٍ هذه الفرصة ، فتوجهت إليه ، و كـان أفرادهـا متلثمـين و حاولوا طرحه من رأس هذه العقبة في الطريق ، لكن المحاولة لم تنجح لأن حذيفة لوح أمـام وجـوه رواحلهم بمحجنة (عصى معوجة) ، فأسرعوا بالفرار و دخلـوا بين الجند ، فقال القرآن : « وهمـوا بِما لَم ينَالُوا » [٥٣] و لا يعرف أحد مِن المشاركين في هذه العملية الفاشلة ، لكن توجد رواية تذكر أسماء المجموعة و فيها أفرد من بناة مسجد الشقاق [٥٤]، فكانت هذه المحاولة من عواقب الأزمة السياسية فـي المدينة ، و سبباً إضافياً لهدم المسجد .

على أي حال تحقق الهدف الرئيس للغزوة ، و هو نزع فتيل الأزمـة الداخليـة ، و تجـاوز مخاطر وقوع صراع بين المهاجرين و الأنصار في المثابة الوحيدة للسلطة الإسلامية . و سيتمكن محمد من تجاوز هذه المعضلات عندما يبدأ بحصد نتائج سياسته التي اتسمت ببعد النظر فور رجوعه للمدينة مع قدوم وفود القبائل العربية إليه ؛ و هذا ما دفع مجتمع المدينة إلى أن يظهر تماسكاً داخلياً من أجـل الحفاظ على النفوذ الصاعد للمدينة و خصوصاً إن استسلام الطائف ـ صنْو مكة في الحجاز ـ كـان فور إيابه من تَبوك (رمضان ، ٩ هـ / ٦٣٠ م) .

لما اقترب من المدينة بعث فريقاً إلى ذلك المسجد من أجل هدمه قبل دخوله المدينة . و قد كان بناة المسجد صلوا فيه ثلاثة أيام [٥٥]، فانضاف عامل أخر ـ تفعيل البناء ـ إلى المعلومات الّتي وصلته و هو بذي أوان ، و محاولة اغتياله ، و التي نرى أنّها الدافع الرئيس للتخاص من بؤرة الخطـر هـذه على سلطته ؛ فبعث محمد مالك بن الدخشم ، و معن بن عدي أو أخاه عامر بن عدي ، و ضم القرطبي و البغوي في تفسيرهما وحشياً ـ قاتل حمزة ، بينا أضاف البغوي عامر بن السكن .

ندد القرآن ببناة المسجد ، و اتهمهم بأنهم كانوا يخططون لجعل المسجد مركزاً لِمن حارب اللّه و رسولَه ، فقال : « و الّذين اتخذُوا مسجِداً ضِراراً و كُفراً و تفريقاً بين المؤمنين و إرصاداً لِمن حارب اللّه و رسولَه من قبلُ و ليحلِفُن إن أردنا إلاّ الحسنى و اللّه يشهد إنّهم لَكاذِبون » [٥٦].

تقول التفاسير بأن « إرصاداً لِمن حارب اللّه و رسولَه من قبلُ » ، أي انتظاراً و إعداداً لِمـن حارب اللّه و رسوله ، و إن المقصود بالآية أبا عامر الراهب ؛ فمن هو أبو عامر الراهب ؟

أبو عامر الراهب

[٥٢] الكامل في التاريخ : ٢ / ٢٨١ .
[٥٣] القرآن ، لتوبة : ٧٤ .
[٥٤] سيرة ابن كثير ، غزوة تَبُوك ؛ تفسير ابن كثير و البيضاوي ، التوبة : ٧٤ .
[٥٥] القرطبي ، التوبة : ١٠٧ .
[٥٦] القرآن ، التوبة : ١٠٧ .

أبو عامر الراهب لقب لعبد عمرو بن صيفي الّذي كان يعيش في المدينة قبل الهجرة النبوية و هو ينتمي للأوس [٥٧]؛ و لُقّب بالراهب لأنّه كان يلتزم سلوكاً زهدياً ، مما حدا ببعض المؤرخين لاعتباره مسيحياً ؛ مع أنّه لم تُوجد دلائل على حضور المسيحية في يثرب .

أعتنق أبو عامـر الراهب المذهب الديني ذا الطابع التوحيدي الّذي لـقي اهتمامـاً في العربيا ـ **الحنيفية** ـ ؛ و توجد معطيات تسمح لنا بافتراض أن الحنيفية مذهب نشأ تحت تـأثير المسـيحية ، دون أن تكون المسيحية منبعه الوحيد ؛ و لأن المؤرخين كانوا يفتقدون للثقافة اللاهوتية التي تسمح لهم بتصنيف الأديان و المذاهب فإنّهم اعتبروا أبا عامر مسيحياً عن غير حقٍ ، و على الـرغم مـن أنّـه وصف نفسه حنيفياً .

يعتقد " جيب " بأن كلمة **حنيفي** ذات جذر سرياني ، فقال إن السريان كانوا يعتبرون الأحنـاف وثنيـين ، استناداً إلى الكلـمة السريانية **حَنفُو** (أي وثني) [٥٨]؛ و نجد في القاموس السرياني : **حَنَفُتوا** (وثني ، كافر) ، **حَنفُويْت** (بوثنية) ، **حَنفُوتو** (وثنية ، إلحاد) ، **حَنِف** (يوثن ، يجعله وثنياً) [٥٩]. و تعزز رواية أخبارية هذا الفرض ، إذ تفيد هذه الرواية بأن وفداً مسيحياً قدم على محمـدٍ فـي عهـد الدعوة المكية ، و تقول الراوية إن الوفد جاء من الحبشة ، و رواية أخرى إنّه جاء من نجـران [٦٠]. و الراوية إن صحت فإنّها تشير إلى علاقة مبكرة بالحبشة تعود لوجود قواسم دينية مشتركة ، و ربما كان الوفد يقوم بجولات تبشيرية ، أو زيارات رعوية لأتباع الديانة المسيحية أو لِمن يعتقد أنّه يقـع ضـمن دائرة الأتباع ؛ و هذا ما يفسر ـ برأينا ـ سبب اختيار محمدٍ الحبشة مرتين مقصداً لهجرة المسـلمين الأوائل .

كان ثمة تطورات اجتماعية خلقت الحاجة إلى شكلٍ ديني توحيدي ، و قد فشلت المسيحية فـي تلبية حاجات العربيا الروحية ـ مثلها في ذلك مثل اليهودية ـ ، و لهذا عجزت على اختراق مجتمعات الجزيرة العربية إلاّ في حدود ضيقة . و عندما تكونت الحنيفية فإنّها خضعت أثنـاء هـذه السـيرورة لشروط العربيا السيا ـ اقتصادية ، و برزت شخصيات عبرت عن هذا التوجه الديني الجديـد ؛ فكـان منهم في مكة زيد بن عمرو بن نُفَيل ، الّذي كان يقول : « إلهي إله إبراهيم ، و ديني دين إبراهيم » ، و هناك روايات تتحدث عن جولات كان يقوم بها ، و أنّه تعرف على معالم الديانتين اليهودية والمسيحية . و قد تُوفي قبل الدعوة الإسلامية بحوالي خمس سنوات في أثناء هذه الجولات ، و ربما يجب دراسـة دوره ـ و دور الحنيفية ـ في تهيئة الجو الديني في مكة من أجل استقبال الإسلام .

كان أبو عامر ينتسب إلى هذا التيار ، و كان يتمتع بنفوذ معنوي في قومه و هذا يعود لمكانـة اجتماعية لم تحددها المصادر التاريخية ؛ مما أعلى من شأنه في يثرب قبل الهجرة ، و في الحقيقة لـم يكن يضاهي نفوذه إلاّ نفوذ ابن خالته عبد اللّه بن أُبي ابن سلول [٦١]، الذي رشـحه اليثاربـة ليصـبح

---

[٥٧] في تفسير ابن كثير للخزرج .

[٥٨] Islam: A Historical Survey, H. A. Gibb, London, 3rd, impression, 1978, p 26.

[٥٩] قاموس سِرِيْاني ـ عربي / إنجليزي / فرنسي Louis Costaz, S.J. ، Imprimerie Catholique ، Beyrooth ، ص ١١٠ .

[٦٠] عيون الأثر في فنون المغازي و الشمائل و السّير ، فتح الدين أبو الفتح سيد الناس ، دار القلم ، بيروت ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م ، م ١ / ١٥٠ .

[٦١] ابن هشام : ٢ / ٥٨٤ ؛ تفسير ابن كثير ، التوبة : ١٠٧ .

زعيمهم الأوحد بعد أن أنهكتهم الفوضى الاجتماسية ، و غياب الأمن فيها بسبب من افتقـاد المجتمـع اليثربي لمؤسسات سياسية تدير شئونه و تنظم حياته .

بعد هجرة محمدٍ إلى المدينة (٦٢٢ م) جرى لقاء بينه و بين أبي عامر ، و قد وصلنا نص مجتزأ من الحوار :

- أبو عامر : ما هذا الذي جئت به ؟
- محمد : جئت بالحنيفية ، دين إبراهيم .
- أبو عامر : أنا عليها .
- محمد : إنك ليست عليها .
- أبو عامر : بلى ، إنّك أدخلت يا محمد في الحنيفية ما ليس فيها .
- محمد : ما فعلت ، و لكنّي جئت بها بيضاء نقية [٦٢].

يتبين من الحوار إن كلا الرجلين كانا يتحاوران بوصفهما ممثلا اتجاه ديني واحد ، و عندما لم يتمخض الّلقاء عن اتفاقٍ صار الخلاف حتمياً بينهما ، إذ كان كلٌ واحدٍ منهما يرى نفسه ممثل الاتجـاه الصحيح للحركة الحنيفية ، و مما وسع شقة الخلاف بين محمدٍ و أبي عامر أن نفوذ أبي عامر أصـبح مهدداً من قِبل نفوذ النّبي المهاجر . و بهذا خرج كلٌ واحدٍ من هذا الّلقاء - هذا إذا لم يكن ثَم لقـاءات أخرى - و هو يرفض الاعتراف بشرعية الآخر - كما يتضح من الحوار - بعـد أن عجـزا علـى التوصل إلى نقطة مشتركة ، و إخفاق محمدٍ في إقناع أبي عامر بالانضمام إليه ؛ و بهذا التقـى البعـد الشّخصي بالبعد الديني في رفض أبي عامر لحنيفية محمدٍ .

ما يثير الانتباه هو قول أبي عامر لمحمدٍ : « إنك أدخلت في الحنيفية ما ليس فيهـا » ، فمـاذا كان يقصد به ؟

حسب المعلومات المتوفّرة بحوزتنا عن رموز التّيار الحنيفي نستطيع القول إن النشاط الـديني الحنيفي كان ذا طابعاً تبشيرياً ، و هو ما يتفق مع شكل دعوة محمدٍ في المرحلة المكية . و في نهايـة هذه المرحلة طرأ تحول كبير على طابع نشاط محمدٍ بسبب عوامل داخلية و تزايد العداء القرشي له و لاتباعه ، و انفتاح آفاق جديدة أمام الحركة الإسلامية مع هجرة محمدٍ إلى المدينة ، فاصطبغت الـدعوة الإسلامية بلون سياسي خالص ، و هذه قفزة حادة ، لا يمكن أن تنال موافقة رموز هذا التّيار من جهة ، و غياب ما يدل على أن الحنيفية كانت تياراً موحداً من جهة ثانية ، و الّتي يبدو أنّها أخـذت أشـكالاً عديدة تبعاً للبيئة الّتي كانت تتوطن فيها . و بيئة مكة كانت أغنى دينياً و سياسياً و اجتماعياً من بيئـة المدينة ، و بطبيعة الحال كان النشاط الديني أكثر غنىً و أشد ديناميكية ؛ و بالتـالي كانـت الحركـة الحنيفية فيها أكثر نضجاً بالمعنى التاريخي و أقدر على الفعل نتيجةً لهذه الحيوية . و تبعاً لـذلك وجـد

---

[٦٢] ابن هشام : ٢ / ٥٨٥ ، عيون الأثر : ١ / ٢٥٥ ؛ تفسير البغوي ، التوبة : ١٠٧ .

فارق آخر بين محمدٍ و بين بقية رموز هذا التّيار ، يكـمن في أن محمداً سعى لشعبنة الفكر الحنيفي ، و هذا شرط جعل الحنيفية فاعلةً في المجتمع الّتي توجد به ؛ و هذا أبرز ما كان يميزه عن شخصـيات هذا التّيار ، و بطبيعة الحال سيرفض التيار الشعبي من قبل ممثّلي الاتجاه النّخبوي .

بعد انتصار بدر (٢ هـ / ٦٢٤ م) ، و الّذي غير من تركيبة الخريطة السياسية للمدينة ، مع توطد سلطة محمدٍ فيها على حساب مواقع مناوئيه اليثاربة ـ و هم عموماً أصحاب النفـوذ السـابق و زعماء القبائل فيها ـ قرر أبو عامر الالتحاق بمكة حيث قريش ـ أعداء محمدٍ الرئيسيون ـ ، و خرج معه خمسون شاباً من الأوس ، و بعض الرواة يقولون خمسة عشر [٦٣]؛ و بذلك أخذت معاداته لمحمـدٍ منحاً حاداً ، و لهذا طاب محمد من أتباعه تسميته « فاسقاً » [٦٤].

أما عبد اللّه بن أبي ، الذي لم يكن في وسعه إيقاف حركة اعتناق الدِين الجديد فقد قرر اعتناق الإسلام ظاهرياً ، من أجل مجابهة نفوذ محمدٍ في المدينة ، و إن بقي على عدائه العمـلي للإسـلام ؛ متخذاً بذلك أسلوب المعارضة من الداخل ، و التي ستعرف في التاريخ الإسلامي باسم النفاق .

عندما قررت قريش الثأر لهزيمتها في بدر ، اشترك أبو عامر معهم في معركـة أُحد (٣ هـ / ٦٢٥ م) ، لأنّه كان قد توعد محمداً ، قائلاً له : « لا أجد قوماً يقاتلونك ، إلاّ قاتلتك معهـم » [٦٥]. و شاركه خمسون رجلاً من قومه[٦٦] و يبدو أنّهم أولئك الذين خرجوا معه ، أو ربما آخرون التحقوا بـه ، فكان أول من اصطدم بجيش المسلمين في الأحابيش [٦٧] و أرقّـاء مكة .

حاول أبو عامر قُبيل المعركة التأثير على الأنصار ، لكنّه فشل في مسعاه و سمع منهم كلامـاً مقذعاً ، فقال : « و اللّه لقد أصاب قومي بعدي شر » [٦٨]؛ و مع ذلك حقّق بعض ثأره من محمدٍ فقد أُتهم بالتسبب بجـرح وجه محمدٍ ، و كسر رباعيته اليمنى ، و السفلى ، و جرح شفته السفلى لأنّه قام بحفر حفر فيما بين الصفين ليقع فيها المسلمون ، فوقع محمدٍ في إحداهن [٦٩].

بعد أن نجح محمدٍ في الاستيلاء على مكة (٨ هـ / ٦٣٠ م) ، و ألحق هزيمة نكراء بهوازن في موقعة حنَين غادر أبو عامر الجزيرة العربية إلى الشام [٧٠]، و تدعي الروايات أنّـه طلـب معونـة البيزنطيين لمحاربة المسلمين ، و المؤكد إنّه لم يجد و لم يكن يتوقع من البيزنطيين غير ملاذٍ لـه ، إذ ليس ثمة ما يدلّ على أن البيزنطيين حاولوا أن يورطوا جيوشهم في صحراء الجزيرة العربية ، أو حتّى إنهم قدموا معونة مالية لأبي عامر .

---

[٦٣] تفسير ابن كثير ؛ تاريخ الطبري : ٢ / ٦٤ ؛ الكامل في التاريخ : ٢ / ١٤٩ .
[٦٤] ابن هشام : ٢ / ٥٨٥ .
[٦٥] تفسر القرطبي ، التوبة : ١٠٧ .
[٦٦] ابن سعد : ٢ / ٣٧ .
[٦٧] الأحابيش : حلفاء قريشٍ من القبائل .
[٦٨] تاريخ الطبري : ٢ / ٦٤ ؛ الكامل في التاريخ : ٢ / ١٥٠ ؛ ابن سعد : ٢ / ٤٠ ؛ تفسير ابن كثير ، التوبة : ١٠٧ .
[٦٩] تفسير ابن كثير ، التوبة ، ١٠٧ ؛ عيون الأثر : ٢ / ٢٠ ـ ٢١ . و هذا يلقي ظلالاً من الشك على أن قوات قريش انهزمت في البدء ، و يبدو أن انسحابهم كان ضمن خطة مسبقة ، و هذا ما تدل عليه الحفر .
[٧٠] يقول ابن كثير في تفسيره إنّ رحيل أبي عامر كان بعد معركة " أُحد " ، و هذا أمر مستبعد ، ففي هذه الموقعة هُزمت قوات المسلمين ، و لم يكن ميئوساً بعد القضاء على الحركة الإسلامية .

من الشام شرع أبو عامر يتصل ببعض رجال المدينة ، و قد تمكن فعلاً من استمالة بعض الأنصار إليه ؛ فطلب منهم أن يتخذوا له مركزاً دعوياً ، و ربما ليكون معقلاً لأنصاره في المستقبل . و تقرر أن يكون هذا المركز مسجداً [٧١].

يعود نجاح أبي عامر في تحقيق هذا الاختراق المتأخر إلى عاملين :

أولهما ، و هو الأهم المناخ المتوتر في المدينة و الّذي سبب لمحمدٍ جملة من المعضلات السياسية و قد وصلت ذروتها في محاولة اغتياله ، فساعدت هذه الظروف أبا عامر على اكتساب بعض الأتباع ، و لقيت نداءاته للتمرد أذناً صاغية من قِبل بعض الأنصار .

ثانيهما ، هو طبيعة مجتمعات الجزيرة العربية و التي تتسم بالتشظي ، فكان السبب المباشر الذي حفز بناء المسجد ـ المركز ـ هو قيام بنو عمرو بن عوف ـ من الأنصار ـ ببناء مسجد قباء ، و طلبوا من محمدٍ القدوم إليهم ليصلي في مسجدهم ؛ فأشعل ذلك نار الحسد في بني عمومتهم بني غنم بن عوف ، و قرروا بدورهم في حمى المنافسة بناء مسجد [٧٢]، و وافقوا أيضاً على جعل المسجد مركزاً لأبي عامر في حال قدومه [٧٣]. و الجلي هنا إن قرار بناة المسجد بجعله معقلاً لأبي عامر في حال مجيئه هو رغبتهم في إضفاء بعدٍ مقدسٍ على مكانهم ، و يستطيع أبو عامر بوصفه حاملاً لصفة الراهب أن يمنح مسجدهم القداسة في مواجهة البعد المقدس لمنافسيهم ـ بناة مسجد قباء ـ ، الذين تلقوا مباركة محمدٍ .

هذه خلفية بناء المسجد ، و الذي تحول بعد ذلك أنقاضاً ، و صار مكباً للنّفايات بأمرٍ من محمدٍ نفسه [٧٤]. و بذلك يكون أبو عامر ـ الحنيفي ـ قد فشل في آخر مساعيه لتقويض سلطة النّبي الحنيفي ، فمات في المنفى الاختياري في قنسرين [٧٥]، أو في الحبشة عند النجاشي [٧٦]. و تتحدث الأنباء عن أن موته كان سنة تسع أو عشر هجرية [٧٧]. و بذلك حدثت القطيعة النهائية بين تيارات الحنيفية ، و كانت آخر محاولات هذا التّيار للبقاء هي بناء مسجد بني عوف ، و نهايته كانت منسجمة مع ضيق أفق رواد التّيار ، و نكوصهم عن تطوير العقيدة الحنيفية ، و قد أساء أبو عامر تقدير موازين القوى في المدينة ، و كان على ما يبدو يتجاهل انتصارات الحركة الإسلامية الأخيرة ، و أنّه أمام جنين دولة . و تـوحي شكل المحاولة ـ مسجد للضعفاء ـ عن أن أبا عامر أراد التوجه لنفس القاعدة الاجتماعية الّتي كان يتوجه إليها محمد في الفترة المكّية ، لكن محاولته جاءت متأخرة زمنياً و خارج البيئة بعد أن تمكّن محمد من استنهاض مجتمع المدينة ، و توحيده نسبياً في مسار نضال ضارٍ لبناء المجتمع المتماسك ؛ و ربما لو حاول في الفترة الأولى للهجرة لكان مصير تحركه مختلف ، و أخّر تعزيز سلطة محمدٍ في المدينة ، لكنّه كان يفتقد لبعد الرؤية ، علاوة على أنّه لم يكن يملك العوامل الأساسية ، و إلا لكان نهض بيثرب قبل هجرة محمدٍ إليها ، فولدت محاولته ميتةً ، في حين كان محمد يحوز كل شروط النجاح .

---

[٧١] مسجد " **الضرار** " حسب اصطلاح القرآن أو " **الشقاق** "حسب المؤرخين .
[٧٢] تفسر القرطبي ، التوبة : ١٠٧ ؛ فتوح البلدان ، ١٨ .
[٧٣] يُورد البلاذري في فتوحه تبريراً يفيد بأن سبب رغبتهم في بناء المسجد يعود إلى أن موضع مسجد قباء كان يُربط فيه حمار ، فقالوا : ((أنحن نسجد في موضع كان يربط في حمار ؟)) (ص ١٧) .
[٧٤] تفسير الطبري و البغوي ، التوبة : ١٠٧ ؛ تفسير القرطبي ، التوبة : ١٠٨ .
[٧٥] تفسر القرطبي و البغوي ، التوبة : ١٠٧ .
[٧٦] الكامل في التاريخ : ٢ / ٢٩٢ .
[٧٧] أسد الغابة : ١ / ٦٢١ .

و إذ أنجز محمد التطور المطلوب في الحركة الحنيفية ، فإنّه أحتفظ لنفسه بحق تمثيل هذا التّيـار فـي العربيا ؛ و لهذا فإن إطلاق تسمية **مسجد الشقاق** على البناء تضمن فكرة انشقاق عن الإسلام بوصـفه الشكل الناجز للحنيفية ، حيث صار الإسلام وريثاً وحيداً لكل التيارات الحنيفية ، و التي فقدت شـرعية وجودها بعدما فشلت في ترسيخ جذورها في مجتمعات الجزيرة العربية .

بعد سني نضالٍ طويلة ، و بالصبر و بالعزيمة الّتي لا تلين ركم محمد أسساً لا يستهان بها من القوة المادية ؛ و لهذا رفض وجود مركزٍ يمثّل أي جناح لهذا التّيار ؛ دون أن يدفعه ذلك إلى أن يغمط لرواد هذا التيار حقهم ، فقال عن زيد بن عمرو بن نُفَيل : « يبعثُ يوم القيامـة أمـةً وحـده » [٧٨]، و عندما جاءه وفد عبد قيس سألهم عن قس بن ساعد الأيادي ، و شرع يتذكّر كيف كان قس يدعو لمذهبه بعكاظ ، و فحوى خطبه بالناس ، فقال عنه : « رحم اللّه قساً ، إنّي أرجو أن يبعثه اللّه عز وجل أمـة وحده » [٧٩]، و عن خالد بن سنان قال : « نبي ضيعه قومه » [٨٠].

هذا هو عين الوفاء للجذور ، حيث يقر محمد بريادتهم لكنّه لا يقبل تضيع إنجازاته لحساب هذا الإقرار ، و لو خطفت المنية أبا عامر قبل الهجرة لما عدم محمداً بحقه كلمات تليـق بمكانتـه ، لكـن شاءت الأقدار أن تضعه في مواجهة نّبي الإسلام ، فقرر التاريخ الإسلامي تجاهله ؛ و لهذا لا نعلم شيئاً عنه و عن سيرته قبل الهجرة ، و عما إذا كانت له أسجاع كقس بن ساعدة .

إن الفرق الأساسي بين محمدٍ و أبي عامر يكمن في أن محمداً أدرك جيداً حركـة التّـاريخ و تحرك ضمن معطيات بيئته الاجتماعية ، بينا كان الثاني بعيداً عن هذا الفهم ، و عاجزاً علـى الفعـل التّاريخي ، و إذ أضاع أبو عامر مسار التّاريخ فإن التاريخ بدوره قد أضاعه في مساره ؛ و بقدر مـا ابتعد أبو عامـر عن دائرة الفعل فيه بقدر ما أبعده التّاريخ عنه ، و لهذا عجـز عن المشـاركة فـي كتابته ، فشطبه كاتبو التاريخ من صفحاته .

أسماء بُناة المسجد

١ ـ خذام بن خالد ، و من داره أُخرج المسجد (من بني عمرو بن عوف) .
٢ ـ ثعلبة بن حاطب [٨١].
٣ ـ معتب بن قُشَير (من بني ضبيعة بن زيد) .
٤ ـ أبو حبيبة بن الأزعر (من بني ضبيعة بن زيد) .
٥ ـ جارية بن عامر[٨٢] ، و ابناه : ٦ ـ مجمع ، ٧ ـ زيد .
٨ ـ نَبتل بن الحارث (من بني ضبيعة) .
٩ ـ بخْرج (من بني ضبيعة) .

[٧٨] أسد الغابة : ٢ / ١٥٧ .
[٧٩] عيون الأثر : ١ / ٨٣ ـ ٨٧ .
[٨٠] عيون الأثر : ٢ / ٣٢٢ .
[٨١] يشكك القرطبي في مساهمته نظراً لمشاركته في معركة بدر (!) .
[٨٢] في تفسير ابن كثير : حارثة بن عامر .

١٠ ـ بجاد بن عثمان (من بني ضبيعة) [٨٣].

١١ ـ وديعة بن ثابت .

١٢ ـ عباد بن حنَيف [٨٤].

ينفرد القرطبي بذكر : عباد بن الأزعر [٨٥]. و قد صلى بهم مجمع بن حارثة .[٨٦]

---

[٨٣] في تفسير ابن كثير : بجاد بن عمران .
[٨٤] غير مذكور عند ابن كثير .
[٨٥] تفسير الآية : ١٠٧ من سورة التوبة عند : ابن كثير ، و القرطبي ، و الطبري ، و البغوي ؛ ابن هشـام : ٢ / ٥٣٠ ؛ تـاريخ الطبـري : / ١٨٦ .
[٨٦] تفسير البغوي ، التوبة : ١٠٧ .